مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الْخَامِسَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ

سِيرَة النَّبِيِّ ﷺ

[الْعَهْد الْمَكِّي]

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

مُوجَزٌ لِحَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ الْبَعْثَةِ

فَإِنَّ السِّيرَةَ النَّبَوِيَّةَ الشَّرِيفَةَ تُقَسَّمُ بِاعْتِبَارِ مَرَاحِلِهَا الدَّعْوِيَّةِ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: مِنْ مِيلَادِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ الْبَعْثَةِ.

الْقِسْمُ الثَّانِي: مِنْ بَعْثَتِهِ ﷺ إِلَىٰ الْهِجْرَةِ.

الْقِسْمُ الثَّالِثُ: مِنْ هِجْرَتِهِ ﷺ إِلَىٰ وَفَاتِهِ ﷺ.

وَهَذَا مُوجَزٌ لِحَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ الْبَعْثَةِ، وَيَبْدَأُ بَعْدَهُ -إِنْ شَاءَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا- مَا يَتَعَلَّقُ بِوَقَائِعِ، وَأَحْدَاثِ سِيرَتِهِ ﷺ مِنْ بَعْثَتِهِ إِلَىٰ هِجْرَتِهِ.

كَانَتْ حَيَاةُ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ الْبَعْثَةِ حَيَاةً فَاضِلَةً شَرِيفَةً، لَمْ تُعْرَفْ لَهُ فِيهَا هَفْوَةٌ، وَلَمْ تُحْصَ عَلَيْهِ فِيهَا زَلَّةٌ، فَقَدْ شَبَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَحُوطُهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِعِنَايَتِهِ، وَيَحْفَظُهُ مِنْ أَقْذَارِ الْجَاهِلِيَّةِ؛ لِمَا يُرِيدُهُ لَهُ مِنْ كَرَامَتِهِ وَرِسَالَتِهِ، حَتَّىٰ صَارَ أَفْضَلَ قَوْمِهِ مُرُوءَةً، وَأَحْسَنَهُمْ خُلُقًا، وَأَكْرَمَهُمْ حَسَبًا، وَأَحْسَنَهُمْ جِوَارًا، وَأَعْظَمَهُمْ حِلْمًا، وَأَصْدَقَهُمْ حَدِيثًا، وَأَعْظَمَهُمْ أَمَانَةً، وَأَبْعَدَهُمْ عَنِ الْفُحْشِ وَالْأَخْلَاقِ الَّتِي تُدَنِّسُ الرِّجَالَ؛ تَنَزُّهًا وَتَكَرُّمًا حَتَّىٰ صَارَ مَعْرُوفًا بِالْأَمِينِ.

لَقَدْ كَانَ فِي الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ حَنِيفِيُّونَ، وَحَّدُوا اللهَ، وَدَعَوْا إِلَىٰ تَوْحِيدِهِ،

www.menhag-un.com

وَكَانَ هُنَاكَ كُرَمَاءُ، وَكَانَ هُنَاكَ أَوْفِيَاءُ، وَكَانَ هُنَاكَ أُنَاسٌ عُرِفُوا بِالْعِفَّةِ، وَطَهَارَةِ الذَّيْلِ وَالْبُعْدِ عَنِ الْمَآثِمِ، وَالتَّنَزُّهِ عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَلَكِنْ مَا كَانَ يُمْكِنُ أَنْ تَجِدَ فِي هَذِهِ الْبِيئَةِ إِنْسَانًا جَمَعَ اللهُ فِيهِ كُلَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ مِثْلَمَا جَمَعَ اللهُ ذَلِكَ فِي النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ.

لَقَدْ نَشَأَ سَلِيمَ الْعَقِيدَةِ، صَادِقَ الْإِيمَانِ، عَمِيقَ التَّفَكُّرِ، غَيْرَ خَاضِعٍ لِتُرَّهَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَمَا عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ سَجَدَ لِصَنَمٍ قَطُّ، أَوْ تَمَسَّحَ بِهِ، أَوْ ذَهَبَ إِلَىٰ عَرَّافٍ أَوْ كَاهِنٍ؛ بَلْ بُغِّضَتْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَالتَّمَسُّحُ بِهَا.

وَلَمَّا لَقِيَ بَحِيرَا الرَّاهِبَ قَالَ لَهُ: أَسْأَلُكَ بِحَقِّ اللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ إِلَّا أَخْبَرْتَنِي عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ، وَكَانَ بَحِيرَا سَمِعَ قَوْمَهُ يَحْلِفُونَ بِهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَسْأَلْنِي بِحَقِّ اللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ شَيْئًا؛ فَوَاللهِ مَا أَبْغَضْتُ شَيْئًا قَطُّ بُغْضَهُمَا**».

وَرَوَىٰ الْبَيْهَقِيُّ -بِسَنَدِهِ- عَنْ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ صَنَمٌ مِنَ النُّحَاسِ يُقَالُ لَهُ: إِسَافٌ وَنَائِلَةُ، يَتَمَسَّحُ بِهِمَا الْمُشْرِكُونَ إِذَا طَافُوا -أَيْ: طَافُوا حَوْلَ الْكَعْبَةِ-، فَطَافَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَطُفْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا مَرَرْتُ تَمَسَّحْتُ بِهِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَمَسَّهُ**»، قَالَ زَيْدٌ: فَطُفْنَا، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي لَأَمَسَّنَّهُ حَتَّىٰ أَنْظُرَ مَا يَكُونُ، فَمَسَحْتُهُ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَمْ تُنْهَ؟!**» قَالَ زَيْدٌ: فَوَالَّذِي أَكْرَمَهُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ مَا اسْتَلَمَ صَنَمًا قَطُّ حَتَّىٰ أَكْرَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالَّذِي أَكْرَمَهُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا مَا رُوِيَ مِنْ أَنَّهُ كَانَ يَشْهَدُ مَعَ الْمُشْرِكِينَ مَشَاهِدَهُمْ، فَسَمِعَ مَلَكَيْنِ خَلْفَهُ وَأَحَدُهُمَا يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: اذْهَبْ بِنَا حَتَّىٰ نَقُومَ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: كَيْفَ نَقُومُ خَلْفَهُ، وَإِنَّمَا عَهْدُهُ بِاسْتِلَامِ الْأَصْنَامِ، قَالَ: فَلَمْ يَعُدْ بَعْدَ ذَلِكَ يَشْهَدُ مَعَ الْمُشْرِكِينَ مَشَاهِدَهُمْ؛ فَهَذَا حَدِيثٌ مُنْكَرٌ وَاهٍ سَاقِطٌ عَنْ الِاعْتِبَارِ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ: مَا رُوِيَ زُورًا أَنَّهُ تَمَسَّحَ بِالصَّفْرَاءِ؛ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ مُحَمَّد حُسَيْن هِيكَل فِي كِتَابِهِ «**حَيَاةُ مُحَمَّدٍ**»، -وَالصَّفْرَاءُ: صَنَمٌ-، أَوْ أَهْدَىٰ إِلَىٰ الْعُزَّىٰ شَاةً بَيْضَاءَ؛ كَمَا زَعَمَ دِرْمِنِغْم، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الرِّوَايَاتِ الْبَاطِلَةِ الْمُخْتَلِقَةِ، الَّتِي هِيَ مِنْ وَضْعِ وَتَزْوِيرِ أَعْدَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ مِنَ الْبَلَايَا وَالطَّامَّاتِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا بَعْضُ الْكُتُبِ الَّتِي لَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا فِي الرِّوَايَةِ، وَجَاءَ بَعْضُ الْمُسْتَشْرِقِينَ، وَالَّذِينَ تَابَعُوهُمْ مِنَ الْكُتَّابِ الْمُسْلِمِينَ فَنَقَلُوهَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَمْحِيصٍ، وَلَا تَدْقِيقٍ!!

وَكَذَلِكَ بُغِّضَ إِلَيْهِ قَوْلُ الشِّعْرِ؛ فَلَمْ يُعْرَفْ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ شِعْرًا، أَوْ أَنْشَأَ قَصِيدَةً، أَوْ حَاوَلَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَتَلَاءَمُ وَمَقَامَ النُّبُوَّةِ؛ فَالشِّعْرُ شَيْءٌ، وَالنُّبُوَّةُ شَيْءٌ آخَرُ، وَلَمْ يَكُنِ الشُّعَرَاءُ بِذَوِي الْأَخْلَاقِ وَالسِّيَرِ الْمَرْضِيَّةِ، فَلَا عَجَبَ أَنْ نَزَّهَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ عَنِ الشِّعْرِ، وَالرِّسَالَةُ تَقْتَضِي انْطِلَاقًا فِي الْأُسْلُوبِ وَالتَّعْبِيرِ، وَالشِّعْرُ تَقَيُّدٌ وَالْتِزَامٌ، وَقَدْ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩]، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ كَانَ يَتَذَوَّقُ مَا فِي الشِّعْرِ مِنْ جَمَالٍ وَحِكْمَةٍ وَرَوْعَةٍ، وَيَسْتَنْشِدُهُ أَصْحَابَهُ أَحْيَانًا، وَلَا عَجَبَ؛ فَهُوَ الْقَائِلُ: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا، وَإِنَّ**

مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وَلَمْ يَشْرَبْ خَمْرًا قَطُّ، وَلَا اقْتَرَفَ فَاحِشَةً أَبَدًا، وَلَا انْغَمَسَ فِيمَا كَانَ يَنْغَمِسُ فِيهِ الْمُجْتَمَعُ الْعَرَبِيُّ حِينَئِذٍ مِنَ اللَّهْوِ، وَاللَّعِبِ، وَالْمَيْسِرِ، وَمُصَاحَبَةِ الْأَشْرَارِ، وَمُعَاشَرَةِ الْقِيَانِ، وَالْجَرْيِ وَرَاءَ الْغِيدِ الْكَوَاعِبِ، عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ فُتُوَّةٍ وَشَبَابٍ، وَشَرَفِ نَسَبٍ، وَعِزَّةِ قَبِيلَةٍ، وَكَمَالٍ، وَجَمَالٍ، وَغَيْرِهَا مِنْ وَسَائِلِ الْإِغْرَاءِ.

وَلَقَدْ كَانَ ﷺ يَذْكُرُ ذَلِكَ وَهُوَ كَبِيرٌ، وَيَعُدُّهُ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ، وَعِصْمَتِهِ لَهُ، فَقَدْ وَرَدَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«مَا هَمَمْتُ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَهُمُّونَ بِهِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ، وَكِلْتَاهُمَا عَصَمَنِي اللهُ ﷻ فِيهِمَا: قُلْتُ لَيْلَةً لِبَعْضِ فِتْيَانِ قُرَيْشٍ، وَنَحْنُ نَرْعَىٰ غَنَمَ أَهْلِهَا، قُلْتُ لِصَاحِبِي: أَبْصِرْ لِي غَنَمِي حَتَّىٰ أَدْخُلَ مَكَّةَ، فَأَسْمُرَ فِيهَا كَمَا يَسْمُرُ الْفِتْيَانُ، قَالَ: نَعَمْ، فَدَخَلْتُ حَتَّىٰ جِئْتُ أَوَّلَ دَارٍ مِنْ مَكَّةَ، فَسَمِعْتُ عَزْفًا بِالْغَرَابِيلِ -أَيْ: بِالدُّفُوفِ- وَالْمَزَامِيرِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: تَزَوَّجَ فُلَانٌ فُلَانَةَ، فَجَلَسْتُ أَنْظُرُ، وَضَرَبَ اللهُ عَلَىٰ أُذُنِي، فَوَاللهِ مَا أَيْقَظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ صَاحِبِي، فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ قُلْتُ: مَا فَعَلْتُ شَيْئًا! ثُمَّ أَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي رَأَيْتُ. ثُمَّ قُلْتُ لَهُ لَيْلَةً أُخْرَىٰ: أَبْصِرْ لِي غَنَمِي حَتَّىٰ أَسْمُرَ فَفَعَلَ، فَدَخَلَ، فَلَمَّا جِئْتُ مَكَّةَ سَمِعْتُ مِثْلَ الَّذِي سَمِعْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَسَأَلْتُ، فَقِيلَ: نَكَحَ فُلَانٌ فُلَانَةَ، فَجَلَسْتُ أَنْظُرُ، فَضَرَبَ اللهُ عَلَىٰ أُذُنِي، فَوَاللهِ مَا أَيْقَظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ صَاحِبِي فَقَالَ: مَا**

فَعَلْتَ؟ فَقُلْتُ: لَا شَيْءَ، ثُمَّ أَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ، فَوَاللهِ مَا هَمَمْتُ، وَلَا عُدْتُ بَعْدَهُمَا لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّىٰ أَكْرَمَنِي اللهُ ﷻ بِنُبُوَّتِهِ».

حَتَّىٰ الْأُمُورُ الَّتِي قَدْ يُتَسَامَحُ فِيهَا فِي عَهْدِ الطُّفُولَةِ فِي أَثْنَاءِ اللَّعِبِ قَدْ صَانَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْهَا؛ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ -فِيمَا ذُكِرَ لِي- يُحَدِّثُ عَمَّا كَانَ اللهُ يَحْفَظُهُ بِهِ فِي صِغَرِهِ؛ أَنَّهُ قَالَ: «**لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي غِلْمَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ نَنْقُلُ الْحِجَارَةَ لِبَعْضِ مَا يَلْعَبُ الْغِلْمَانُ، كُلُّنَا قَدْ تَعَرَّىٰ وَأَخَذَ إِزَارَهُ، وَجَعَلَهُ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ يَحْمِلُ عَلَيْهِ الْحِجَارَةَ، فَإِنِّي لَأُقْبِلُ مَعَهُمْ وَأُدْبِرُ إِذْ لَكَمَنِي لَاكِمٌ مَا أَرَاهُ لَكَمَةً وَجِيعَةً، ثُمَّ قَالَ: شُدَّ عَلَيْكَ إِزَارَكَ، قَالَ: فَأَخَذْتُهُ وَشَدَدْتُهُ عَلَيَّ، ثُمَّ جَعَلْتُ أَحْمِلُ الْحِجَارَةَ عَلَىٰ رَقَبَتِي، وَإِزَارِي عَلَيَّ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِي**»، قَالَ: وَقَدْ سَمِعْتَ فِيمَا سَبَقَ مَا حَدَثَ لَهُ أَثْنَاءَ نَقْلِهِ الْحِجَارَةَ مَعَ أَعْمَامِهِ فِي بِنَاءِ الْكَعْبَةِ.

بَلْ كَانَ مِنْ تَوْفِيقِ اللهِ لَهُ أَنَّهُ كَانَ يَقِفُ مَعَ النَّاسِ بِعَرَفَاتٍ قَبْلَ أَنْ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، وَلَا يَصْنَعُ مَا تَصْنَعُ قُرَيْشٌ مِنْ عَدَمِ وُقُوفِهَا مَعَ النَّاسِ بِعَرَفَاتٍ، وَوُقُوفِهَا بِالْمُزْدَلِفَةِ؛ فَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَوَاقِفٌ عَلَىٰ بَعِيرٍ لَهُ مَعَ النَّاسِ بِعَرَفَاتٍ حَتَّىٰ يَدْفَعَ مَعَهُمْ، تَوْفِيقًا مِنَ اللهِ ﷻ لَهُ».

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ مَحَلَّ ثِقَةِ النَّاسِ وَأَمَانَاتِهِمْ، لَا يَأْتَمِنُهُ أَحَدٌ عَلَىٰ وَدِيعَةٍ مِنَ الْوَدَائِعِ إِلَّا أَدَّاهَا لَهُ، وَلَا يَأْتَمِنُهُ أَحَدٌ عَلَىٰ سِرٍّ أَوْ كَلَامٍ إِلَّا وَجَدَ عِنْدَهُ حُسْنَ

الظَّنِّ بِهِ، فَلَا عَجَبَ أَنْ كَانَ مَعْرُوفًا فِي قُرَيْشٍ قَبْلَ النُّبُوَّةِ بِالْأَمِينِ، وَقَدِ اسْتَمَرَّتْ هَذِهِ الثِّقَةُ إِلَىٰ مَا بَعْدَ النُّبُوَّةِ، وَلِذَلِكَ لَمَّا هَاجَرَ ﷺ أَبْقَىٰ عَلِيًّا؛ كَيْ يَرُدَّ وَدَائِعَ النَّاسِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهُ، وَكَانَ لَا يُعَاهِدُهُ أَحَدٌ عَهْدًا إِلَّا وَجَدَ عِنْدَهُ حُسْنَ الْوَفَاءِ، وَلَا يَعِدُ وَعْدًا إِلَّا صَدَقَ فِيهِ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ عَاهَدَ رَجُلًا أَنْ يَلْقَاهُ فِي مَكَانِ كَذَا، فَمَكَثَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ يَذْهَبُ إِلَىٰ ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَالرَّجُلُ لَا يَذْهَبُ؛ فَقَالَ لَهُ: «**لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ**».

وَكَانَ الصِّدْقُ مِنْ صِفَاتِهِ الْبَارِزَةِ، شَهِدَ لَهُ بِذَلِكَ الْعَدُوُّ وَالصَّدِيقُ، وَلَمَّا بَعَثَهُ اللهُ إِلَىٰ النَّاسِ جَمِيعًا، وَأَمَرَهُ أَنْ يُنْذِرَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ؛ صَارَ يُنَادِي بُطُونَ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا حَضَرُوا قَالَ لَهُمْ: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا وَرَاءَ هَذَا الْجَبَلِ تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَ كُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**» قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا قَطُّ.

وَلَمَّا قَابَلَ هِرَقْلُ -مَلِكُ الرُّومِ- أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ -وَكَانَ لَمْ يَزَلْ مُشْرِكًا- قَالَ لَهُ: هَلْ جَرَّبْتُمْ عَلَيْهِ كَذِبًا؟ قَالَ: لَا، قَالَ هِرَقْلُ: مَا كَانَ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَىٰ النَّاسِ، وَيَكْذِبَ عَلَىٰ اللهِ!!

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ ذَلِكَ كُلِّهِ؛ وَصُولًا لِلرَّحِمِ، عَطُوفًا عَلَىٰ الْفُقَرَاءِ وَذَوِي الْحَاجَةِ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ الضَّعِيفَ، وَيَمْسَحُ بِيَدَيْهِ بُؤْسَ الْبَائِسِينَ، وَيُفَرِّجُ كَرْبَ الْمَكْرُوبِينَ، وَقَدْ وَصَفَتْهُ بِذَلِكَ السَّيِّدَةُ الْعَاقِلَةُ

الْحَازِمَةُ خَدِيجَةُ -وَهِيَ أَعْرَفُ النَّاسِ بِهِ- فِي بَدْءِ النُّبُوَّةِ، فَقَالَتْ: «مَا كَانَ اللهُ لِيُخْزِيَكَ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ».

وَمِنْ هَذَا نَرَىٰ أَنَّ حَيَاةَ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ الْبَعْثَةِ كَانَتْ أَمْثَلَ حَيَاةٍ وَأَكْرَمَهَا، وَأَحْفَلَهَا بِمَعَانِي الْإِنْسَانِيَّةِ، وَالشَّرَفِ، وَالْكَرَامَةِ، وَعَظَمَةِ النَّفْسِ، ثُمَّ نَبَّأَهُ اللهُ وَبَعَثَهُ، فَنَمَتْ هَذِهِ الْفَضَائِلُ وَتَرَعْرَعَتْ، وَمَا زَالَتْ تَسْمُو فُرُوعُهَا، وَتَرْسَخُ أُصُولُهَا، وَتَتَّسِعُ أَفْيَاؤُهَا حَتَّىٰ أَضْحَتْ فَرِيدَةً فِي تَارِيخِ الْحَيَوَاتِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا.

إِنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الْفَاضِلَةَ الْمُثْلَىٰ لَمِنْ أَكْبَرِ الدَّلَائِلِ عَلَىٰ ثُبُوتِ نُبُوَّتِهِ ﷺ، فَمَا سَمِعْنَا فِي تَارِيخِ الدُّنْيَا -قَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا- أَنَّ حَيَاةً كُلُّهَا فَضْلٌ وَكَمَالٌ، وَهُدًىٰ وَنُورٌ، وَحَقٌّ وَخَيْرٌ، كَحَيَاةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَلَمْ يُعْهَدْ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ أَنَّ إِنْسَانًا يَسْمُو عَلَىٰ كُلِّ مُجْتَمَعِهِ وَهُوَ يَعِيشُ فِيهِ، وَيَنْشَأُ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ نَقَائِصِهِ وَمَثَالِبِهِ وَهُوَ نَابِعٌ مِنْهُ، وَلَا أَنَّ نُورًا يَنْبَعِثُ مِنْ وَسَطِ الظُّلُمَاتِ، وَلَا طَهَارَةً تَنْبُعُ مِنْ وَسَطِ أَدْنَاسٍ وَأَرْجَاسٍ، وَلَا أَنَّ عِلْمًا يَكُونُ مِنْ بَيْنِ جَهَالَاتٍ وَخُرَافَاتٍ؛ اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا كَانَ ذَلِكَ لِحِكْمَةٍ، وَأَمْرٍ جَرَىٰ عَلَىٰ غَيْرِ الْمَعْهُودِ وَالْمَأْلُوفِ فِيمَا حَوْلَهُ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِإِعْدَادِ النَّبِيِّ ﷺ لِلنُّبُوَّةِ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

لَقَدْ قَرَأْنَا سِيَرَ الْحُكَمَاءِ، وَالْفَلَاسِفَةِ، وَالْعَبَاقِرَةِ، وَالْمُصْلِحِينَ، وَأَصْحَابِ النِّحَلِ وَالْمَذَاهِبِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، فَمَا وَجَدْنَا حَيَاةَ أَحَدٍ مِنْهُمْ تَخْلُو مِنَ الشُّذُوذِ

عَنِ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، وَالتَّفْكِيرِ الصَّحِيحِ، وَالْخُلُقِ الرَّضِيِّ؛ إِمَّا مِنْ نَاحِيَةِ الْعَقِيدَةِ وَالتَّفْكِيرِ، وَإِمَّا مِنْ نَاحِيَةِ السُّلُوكِ وَالْأَخْلَاقِ، وَغَايَةُ مَا يُقَالُ فِي أَسْمَاهُمْ وَأَزْكَاهُمْ: كَفَىٰ الْمَرْءَ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهُ!! حَاشَا الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ؛ فَقَدْ نَشَّأَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ أَكْمَلِ الْأَحْوَالِ، وَعَظِيمِ الْأَخْلَاقِ وَالْخِلَالِ، وَقَدْ بَلَغَ الذِّرْوَةَ فِي الْكَمَالِ خَاتَمُهُمْ، وَسَيِّدُ الْبَشَرِ كُلِّهِمْ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ.

أَتَمَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ عُمُرِهِ، وَالدُّنْيَا وَاقِفَةٌ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ، وَالْإِنْسَانِيَّةُ تَخْطُو بِخُطًىٰ سَرِيعَةٍ إِلَىٰ الِانْتِحَارِ، هُنَالِكَ ظَهَرَتْ تَبَاشِيرُ الصُّبْحِ وَطَلَائِعُ السَّعَادَةِ، وَآنَ أَوَانُ الْبَعْثَةِ، وَتِلْكَ سُنَّةُ اللهِ إِذَا اشْتَدَّ الظَّلَامُ، وَطَالَتِ الشِّقْوَةُ.

وَبَلَغَ قَلَقُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِمَّا كَانَ يَرَاهُ مِنْ جَهْلٍ وَجَاهِلِيَّةٍ، وَخُرَافَةٍ وَوَثَنِيَّةٍ، وَتَطَلُّعِهِ إِلَىٰ الْإِرْشَادِ وَالْهِدَايَةِ، مِنْ فَاطِرِ الْكَوْنِ وَخَالِقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، بَلَغَ قَلَقُهُ ﷺ مِنْ ذَلِكَ ذِرْوَتَهُ، كَأَنَّ حَادِيًا يَحْدُوهُ، فَحُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَخْلُوَ وَحْدَهُ، وَكَانَ يَخْرُجُ مِنْ مَكَّةَ وَيُبْعِدُ، حَتَّىٰ تُحْسَرَ عَنْهُ الْبُيُوتُ، وَيُفْضِيَ إِلَىٰ شِعَابِ مَكَّةَ وَبُطُونِهَا وَأَوْدِيَتِهَا، فَلَا يَمُرُّ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ! وَيَلْتَفِتُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَوْلَهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، وَخَلْفَهُ؛ فَلَا يَرَىٰ إِلَّا الشَّجَرَ وَالْحِجَارَةَ.

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرَىٰ عَجَائِبَ قَبْلَ بَعْثَتِهِ، فَمِنْ ذَلِكَ:

- عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

- وَكَانَ ﷺ يَرَىٰ نُورًا وَيَسْمَعُ صَوْتًا؛ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «**أَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَكَّةَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، سَبْعَ سِنِينَ يَرَىٰ الضَّوْءَ وَالنُّورَ وَيَسْمَعُ الصَّوْتَ، وَثَمَانِيَ سِنِينَ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، وَأَقَامَ بِالْمَدِينَةِ عَشْرًا**» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَابْنُ سَعْدٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَعَنْهُ أَيْضًا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِخَدِيجَةَ رضي الله عنها: «**إِنِّي أَرَىٰ ضَوْءًا وَأَسْمَعُ صَوْتًا، وَإِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ يَكُونَ بِي جُنُونٌ**»؛ قَالَتْ: لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللهِ، ثُمَّ أَتَتْ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: إِنْ يَكُنْ صَادِقًا؛ فَإِنَّ هَذَا نَامُوسٌ مِثْلُ نَامُوسِ مُوسَىٰ، فَإِنْ بُعِثَ وَأَنَا حَيٌّ فَسَأُعَزِّرُهُ، وَأَنْصُرُهُ، وَأُومِنُ بِهِ. أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَابْنُ سَعْدٍ، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَلَمَّا أَرَادَ اللهُ عز وجل رَحْمَةَ الْعِبَادِ أَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا أَوْحَىٰ وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ أَرْبَعُونَ سَنَةً؛ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «**أُنْزِلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ، وَكَانَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرًا، فَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ وَالِانْفِرَادُ عَنْ قَوْمِهِ؛ لِمَا يَرَاهُمْ عَلَيْهِ فِي الضَّلَالِ الْمُبِينِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالسُّجُودِ لِلْأَصْنَامِ، وَقَوِيَتْ مَحَبَّتُهُ لِلْخَلْوَةِ عِنْدَ مُقَارَبَةِ إِيحَاءِ

اللهِ إِلَيْهِ؛ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ: الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، وَكَانَ لا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ -أَيْ: كَضِيَاءِ الصُّبْحِ، وَهَذَا يُقَالُ فِي الشَّيْءِ الْوَاضِحِ الْبَيِّنِ-، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ -أَيِ: الْخَلْوَةُ-، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدَ لِمِثْلِهَا، حَتَّىٰ جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ».

وَكَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ، وَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، وَكَانَ يَخْلُو غَالِبًا بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَمْكُثُ فِيهِ لَيَالِيَ مُتَوَالِيَاتٍ، وَكَانَ يَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، وَكَانَ يَتَعَبَّدُ، وَيَدْعُو عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ الْإِبْرَاهِيمِيَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ، وَالْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ الْمُنِيبَةِ إِلَىٰ اللهِ.

منهاج النبوة
www.menhag-un.com

عُمُرُ النَّبِيِّ ﷺ وَقْتَ بَعْثَتِهِ

وَكَانَ فِي إِحْدَىٰ الْمَرَّاتِ إِذْ جَاءَهُ الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ لِبَعْثَتِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي رَمَضَانَ -قِيلَ: فِي السَّابِعَ عَشَرَ مِنْهُ-، فِي السَّنَةِ الْحَادِيَةِ وَالْأَرْبَعِينَ مِنْ مِيلَادِهِ -الْمُوَافِقِ لِلسَّادِسِ مِنْ أُغُسْطُسَ سَنَةَ عَشْرٍ وَسِتِّ مِئَةٍ مِنْ مِيلَادِ الْمَسِيحِ- فِي يَقَظَةٍ وَوَعْيٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ وَهُوَ بِحِرَاءٍ، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ!**»، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي، حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ، حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ:** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١- ٥]»؛ وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ النُّبُوَّةِ، وَأَوَّلَ وَحْيٍ مِنَ الْقُرْآنِ.

وَلَمَّا تَكَامَلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَرْبَعُونَ سَنَةً، وَخَرَجَ إِلَىٰ حِرَاءٍ؛ كَمَا كَانَ يَخْرُجُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، أَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام بِأَمْرِ اللهِ ﷻ، وَبَعَثَهُ ﷻ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا.

رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «بُعِثَ رَسُولُ اللهِ

ﷺ لأَرْبَعِينَ سَنَةً، فَمَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُوحَىٰ إِلَيْهِ، ثُمَّ أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ، فَهَاجَرَ عَشْرَ سِنِينَ، وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلاثٍ وَسِتِّينَ».

وَقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ ﷺ بُعِثَ عَلَىٰ رَأْسِ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً، هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ الَّذِي أَطْبَقَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ».

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَلَمَّا كَمُلَ لَهُ أَرْبَعُونَ، أَشْرَقَ عَلَيْهِ نُورُ النُّبُوَّةِ، وَأَكْرَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِرِسَالَتِهِ، وَبَعَثَهُ إِلَىٰ خَلْقِهِ، وَاخْتَصَّهُ بِكَرَامَتِهِ، وَجَعَلَهُ أَمِينَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ».

قَالَ الصَّرْصَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَأَتَتْ عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ فَأَشْرَقَتْ ... شَمْسُ النُّبُوَّةِ مِنْهُ فِي رَمَضَانِ

وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ، وَذَلِكَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وَرَوَىٰ الإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»: عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الإِثْنَيْنِ؟ فَقَالَ: «**فِيهِ وُلِدْتُ، وَفِيهِ أُنْزِلَ عَلَيَّ**».

لَمَّا أَتَمَّ النَّبِيُّ ﷺ الأَرْبَعِينَ مِنْ عُمُرِهِ -عَلَىٰ الْقَوْلِ الرَّاجِحِ الْمُطْبَقِ عَلَيْهِ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ-؛ ذَلِكَ لِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِسَنَدِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

«بُعِثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَرْبَعِينَ سَنَةً»، وَلِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ، وَلَا بِالْقَصِيرِ، وَلَيْسَ بِالْأَبْيَضِ الْأَمْهَقِ، وَلَا بِالْآدَمِ، وَلَا بِالْجَعْدِ الْقَطَطِ، وَلَا بِالسَّبِطِ، بَعَثَهُ اللهُ عَلَىٰ رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً».

لَمَّا أَتَمَّ الْأَرْبَعِينَ؛ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِنُورِ النُّبُوَّةِ وَالْإِيمَانِ؛ لِيُبَدِّدَ بِهِ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، حَيْثُ اخْتَارَهُ اللهُ تَعَالَىٰ نَبِيًّا لَهُ، وَرَسُولًا إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَنُورًا يَهْدِىٰ بِهِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَقَدْ وَصَفَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِذَلِكَ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

فَكَانَتْ بَعْثَتُهُ ﷺ وَالنُّورُ الَّذِي جَاءَ بِهِ حُجَّةً عَلَىٰ النَّاسِ، فَمَنْ تَبِعَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ.

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ».

قَالَ الْحَافِظُ: «أَيْ: فِي أَوَّلِ الْمُبْتَدَآتِ مِنْ إِيجَادِ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا، وَأَمَّا مُطْلَقُ مَا

يَدُلُّ عَلَىٰ نُبُوَّتِهِ فَتَقَدَّمَتْ لَهُ أَشْيَاءُ؛ مِثْلُ تَسْلِيمِ الْحَجَرِ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ».

«فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، حَتَّىٰ جَاءَهُ الْحَقُّ -أَيِ: الْأَمْرُ الْحَقُّ وَسُمِّيَ حَقًّا؛ لِأَنَّهُ وَحْيٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ- وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ ﷺ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ!**» قَالَ: «**فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي** -وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي «السِّيرَةِ»: **فَغَتَّنِي- حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّيَ الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي** -أَيْ: أَطْلَقَنِي-، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ!**».

أَيْ: مَا أُحْسِنُ الْقِرَاءَةَ، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثًا، قِيلَ لَهُ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾؛ أَيْ: لَا تَقْرَأْهُ بِقُوَّتِكَ وَلَا بِمَعْرِفَتِكَ؛ لَكِنْ بِحَوْلِ رَبِّكَ وَإِعَانَتِهِ، فَهُوَ يُعَلِّمُكَ كَمَا خَلَقَكَ، وَكَمَا نَزَعَ عَنْكَ عَلَقَ الدَّمِ، وَغَمْزَ الشَّيْطَانِ فِي الصِّغَرِ، وَعَلَّمَ أُمَّتَكَ حَتَّىٰ صَارَتْ تَكْتُبُ بِالْقَلَمِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ أُمِّيَّةً، وَالتَّقْدِيرُ: لَسْتُ بِقَارِئٍ أَلْبَتَّةَ.

«**فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي**»، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ**».

«وَالْحِكْمَةُ فِي هَذَا الْغَطِّ: لِإِظْهَارِ الشِّدَّةِ وَالْجِدِّ؛ تَنْبِيهًا عَلَىٰ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي سَيُلْقَىٰ إِلَيْهِ، فَلَمَّا ظَهَرَ أَنَّهُ صَبَرَ عَلَىٰ ذَلِكَ أُلْقِيَ إِلَيْهِ، وَلَعَلَّ الْحِكْمَةَ فِي تَكْرِيرِ الْإِقْرَاءِ: الْإِشَارَةَ إِلَىٰ انْحِصَارِ الْإِيمَانِ الَّذِي يَنْشَأُ الْوَحْيُ بِسَبَبِهِ فِي ثَلَاثٍ: الْقَوْلِ، وَالْعَمَلِ، وَالنِّيَّةِ. وَأَنَّ الْوَحْيَ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ هِيَ: التَّوْحِيدُ، وَالْأَحْكَامُ،

وَالْقَصَصُ، وَفِي تَكْرِيرِ الْغَطِّ الْإِشَارَةُ إِلَىٰ الشَّدَائِدِ الثَّلَاثِ الَّتِي وَقَعَتْ لَهُ ﷺ وَهِيَ: الْحَصْرُ فِي الشِّعْبِ، وَخُرُوجُهُ فِي الْهِجْرَةِ، وَمَا وَقَعَ لَهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَفِي الْإِرْسَالَاتِ الثَّلَاثَةِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ حُصُولِ التَّيْسِيرِ لَهُ عَقِبَ الثَّلَاثِ الْمَذْكُورَةِ: فِي الدُّنْيَا، وَالْبَرْزَخِ، وَالْآخِرَةِ»؛ قَالَهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

قَالَ: قُلْتُ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي**»، فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ».

وَالْحِكْمَةُ فِي الْعُدُولِ عَنِ الْقَلْبِ إِلَىٰ الْفُؤَادِ: أَنَّ الْفُؤَادَ وِعَاءُ الْقَلْبِ عَلَىٰ مَا قَالَهُ أَهْلُ اللُّغَةِ، فَإِذَا حَصَلَ لِلْوِعَاءِ الرُّجْفَانُ حَصَلَ لِمَا فِيهِ، فَيَكُونُ فِي ذِكْرِهِ مِنْ تَعْظِيمِ الْأَمْرِ مَا لَيْسَ فِي ذِكْرِ الْقَلْبِ.

«فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ: «**زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي**» -أَيْ: غَطُّونِي بِالثِّيَابِ، وَلُفُّونِي بِهَا-».

قَالَ الْحَافِظُ: «قَالَ ﷺ ذَلِكَ؛ لِشِدَّةِ مَا لَحِقَهُ مِنْ هَوْلِ الْأَمْرِ، وَجَرَتِ الْعَادَةُ بِسُكُونِ الرِّعْدَةِ بِالتَّلْفِيفِ».

«فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ -أَيِ: الْفَزَعُ- فَقَالَ لِخَدِيجَةَ، وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: «**لَقَدْ خَشِيتُ...**»».

وَالْخَشْيَةُ الْمَذْكُورَةُ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِهَا عَلَىٰ اثْنَيْ عَشَرَ قَوْلًا...

www.menhaj-um.com

وَأَوْلَىٰ هَذِهِ الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ، وَأَسْلَمُهَا مِنَ الِارْتِيَابِ هُوَ: الْمَوْتُ مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ أَوِ الْمَرَضِ.

«**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي**»: فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا -وَمَعْنَاهَا النَّفْيُ وَالْإِبْعَادُ- وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا».

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «انْظُرْ كَيْفَ اسْتَدَلَّتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بِمَا فِيهِ ﷺ مِنَ الصِّفَاتِ الْفَاضِلَةِ، وَالْأَخْلَاقِ وَالشِّيَمِ، عَلَىٰ أَنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَا يُخْزَىٰ أَبَدًا، فَعَلِمَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بِكَمَالِ عَقْلِهَا وَتَمَامِ فِطْرَتِهَا أَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، وَالْأَخْلَاقَ الْفَاضِلَةَ، وَالشِّيَمَ الشَّرِيفَةَ؛ تُنَاسِبُ أَشْكَالَهَا مِنْ كَرَامَةِ اللهِ، وَتَأْيِيدِهِ، وَإِحْسَانِهِ، وَلَا تُنَاسِبُ الْخِزْيَ وَالْخِذْلَانَ، وَإِنَّمَا يُنَاسِبُهُ أَضْدَادُهَا، فَمَنْ رَكَّبَهُ اللهُ عَلَىٰ أَحْسَنِ الصِّفَاتِ وَأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ إِنَّمَا يَلِيقُ بِهِ كَرَامَتُهُ وَإِتْمَامُ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ».

«كَلَّا، وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ».

وَالْكَلُّ: بِفَتْحِ الْكَافِ، أَصْلُهُ الثِّقَلُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي «سُورَةِ النَّحْلِ»: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ [النحل: ٧٦].

وَيَدْخُلُ فِي حَمْلِ الْكَلِّ: الْإِنْفَاقُ عَلَىٰ الضَّعِيفِ، وَالْيَتِيمِ، وَالْعِيَالِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

«وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ»: **قَالَ النَّوَوِيُّ**: «أَيْ: تُعْطِي النَّاسَ مَا لَا يَجِدُونَهُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ نَفَائِسِ الْفَوَائِدِ، وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، أَوْ تَكْسِبُ الْمَالَ الْعَظِيمَ الَّذِي يَعْجِزُ

عَنْهُ غَيْرُكَ؛ ثُمَّ تَجُودُ بِهِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ وَأَبْوَابِ الْمَكَارِمِ».

«وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ»: النَّوَائِبُ: جَمْعُ نَائِبَةٍ، وَهِيَ الْحَادِثَةُ، وَإِنَّمَا قَالَتْ: نَوَائِبِ الْحَقِّ؛ لِأَنَّ النَّائِبَةَ قَدْ تَكُونُ فِي الْخَيْرِ، وَقَدْ تَكُونُ فِي الشَّرِّ.

«فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّىٰ أَتَتْ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسِد بْنِ عَبْدِ الْعُزَّىٰ -ابْنِ عَمِّ خَدِيجَةَ-، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ! اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي! مَاذَا تَرَىٰ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَىٰ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ عَلَىٰ مُوسَىٰ».

قَالَ: عَلَىٰ مُوسَىٰ، وَلَمْ يَقُلْ: عَلَىٰ عِيسَىٰ مَعَ كَوْنِهِ نَصْرَانِيًّا؛ لِأَنَّ كِتَابَ مُوسَىٰ عليه السلام مُشْتَمِلٌ عَلَىٰ أَكْثَرِ الْأَحْكَامِ بِخِلَافِ عِيسَىٰ.

وَلِأَنَّ مُوسَىٰ عليه السلام بُعِثَ بِالنِّقْمَةِ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَنْ مَعَهُ، بِخِلَافِ عِيسَىٰ.

أَوْ قَالَهُ تَحْقِيقًا لِلرِّسَالَةِ؛ لِأَنَّ نُزُولَ جِبْرِيلَ عَلَىٰ مُوسَىٰ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ، بِخِلَافِ عِيسَىٰ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْيَهُودِ يُنْكِرُونَ نُبُوَّتَهُ.

«فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ عَلَىٰ مُوسَىٰ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا».

الْجَذَعُ: هُوَ الصَّغِيرُ مِنَ الْبَهَائِمِ، كَأَنَّهُ تَمَنَّىٰ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ ظُهُورِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ

الْإِسْلَامِ شَابًّا؛ لِيَكُونَ أَمْكَنَ لِنَصْرِهِ، وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ سِرُّ وَصْفِهِ بِكَوْنِهِ كَانَ كَبِيرًا أَعْمَىٰ.

«لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟**»».

اسْتَبْعَدَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُخْرِجُوهُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ سَبَبٌ يَقْتَضِي الْإِخْرَاجَ، لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي تَقَدَّمَ مِنْ خَدِيجَةَ وَصْفُهَا.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ انْزِعَاجُهُ كَانَ مِنْ جِهَةِ خَشْيَةِ فَوَاتِ مَا أَمَّلَهُ مِنْ إِيمَانِ قَوْمِهِ بِاللهِ، وَإِنْقَاذِهِمْ مِنْ وَضَرِ الشِّرْكِ، وَأَدْنَاسِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، وَلِيَتِمَّ لَهُ الْمُرَادُ مِنْ إِرْسَالِهِ إِلَيْهِمْ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ انْزَعَجَ مِنَ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا.

«**أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟**» قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا».

أَيْ: قَوِيًّا، مَأْخُوذًا مِنَ الْأَزْرِ، وَالْأَزْرُ: الْقُوَّةُ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْإِزَارِ، أَشَارَ بِذَلِكَ إِلَىٰ تَشْهِيرِهِ فِي نُصْرَتِهِ.

«ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ»: أَيْ: لَمْ يَلْبَثْ، وَأَصْلُ النُّشُوبِ التَّعَلُّقُ؛ أَيْ: لَمْ يَتَعَلَّقْ بِشَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ حَتَّىٰ مَاتَ.

«ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

النَّبِيُّ ﷺ -كَمَا مَرَّ- وُجِدَتِ الْبِشَارَةَ بِهِ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ، وَنَطَقَ بِهَا الْأَحْبَارُ وَالرُّهْبَانُ، كَمَا نَطَقَ بِهَا مِنْ قَبْلُ -مَعَ الْوَصَايَةِ بِالْاتِّبَاعِ- الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ، حَتَّىٰ الْكُهَّانُ وَالْجَانُّ ذَكَرُوا الْبِشَارَةَ بِالنَّبِيِّ الْعَدْنَانِ ﷺ.

وَجَاءَهُ الْوَحْيُ، وَأَوَّلُ كَلِمَةٍ هِيَ: اقْرَأْ.

وَنُودِيَ: اقْرَأْ، تَعَالَىٰ اللهُ قَائِلُهَا ... لَمْ تَتَّصِلْ قَبْلَ مَنْ قِيلَتْ لَهُ بِفَمِ

هُنَاكَ أَذَّنَ لِلرَّحْمَنِ فَامْتَلَأَتْ ... أَسْمَاعُ مَكَّةَ مِنْ قُدْسِيَّةِ النَّغَمِ

فَلَا تَسَلْ عَنْ قُرَيْشٍ كَيْفَ حَيْرَتُهَا ... وَكَيْفَ نُفْرَتُهَا فِي السَّهْلِ وَالْعَلَمِ

تَسَاءَلُوا عَنْ عَظِيمٍ قَدْ أَلَمَّ بِهِمْ ... رَمَىٰ الْمَشَايِخَ وَالْوِلْدَانَ بِاللَّمَمِ

يَا جَاهِلِينَ عَلَىٰ الْهَادِي وَدَعْوَتِهِ ... هَلْ تَجْهَلُونَ مَكَانَ الصَّادِقِ الْعَلَمِ

وَهَا هُنَا رِوَايَةٌ مُرْسَلَةٌ ضَعِيفَةٌ:

وَقَعَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ نُمَيْرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**جَاءَنِي جِبْرِيلُ، وَأَنَا نَائِمٌ، بِنَمَطٍ مِنْ دِيبَاجٍ فِيهِ كِتَابٌ، فَقَالَ: اقْرَأْ**».

وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ مَعَ ضَعْفِهَا مُخَالِفَةٌ لِرِوَايَةِ «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ أَنَّ نُزُولَ جِبْرِيلَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ فِي الْيَقَظَةِ لَا فِي الْمَنَامِ، وَالْمُعَوَّلُ عَلَيْهِ مَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي الْيَقَظَةِ لَا فِي الْمَنَامِ.

www.menhag-un.com

أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ

كَانَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْفَذِّ الْمَشْهُودِ خَمْسُ آيَاتٍ مِنْ صَدْرِ «سُورَةِ الْعَلَقِ»، «سُورَةِ: اقْرَأْ» هِيَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١- ٥]، وَكَانَ ذَلِكَ فِي رَمَضَانَ حَسْبَمَا قَالَ ﷻ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وَكَانَ ذَلِكَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ؛ كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وَهِيَ اللَّيْلَةُ الْمُبَارَكَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ ﷻ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ٣-٥].

وَقَدْ كَانَتْ طَلَائِعُ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ فِيهِ إِشَادَةٌ بِالْقَلَمِ وَخَطَرِهِ، وَبِالْعِلْمِ وَمَنْزِلَتِهِ فِي بِنَاءِ الشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ، فَمَا أَصْدَقَهَا مِنْ طَلَائِعَ تَجْعَلُ الْعِلْمَ وَالْمَعْرِفَةَ مِنْ أَخَصِّ خَصَائِصِ الْإِنْسَانِ!

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ أَنْكَرَ بِفِطْرَتِهِ السَّلِيمَةِ انْحِرَافَاتِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَعِبَادَتَهُمْ غَيْرَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ وَلِذَلِكَ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ لِلتَّفَكُّرِ وَالتَّأَمُّلِ، وَمُبَايَنَةِ أَهْلِ الشِّرْكِ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ الْوَاقِعِ فِي قِمَّةِ جَبَلِ النُّورِ، وَهُوَ بَعِيدٌ عَنْ

مَبَانِي مَكَّةَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، لَكِنَّ الْجَالِسَ فِي الْغَارِ يُمْكِنُهُ رُؤْيَةُ الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ، فَكَانَ يَمْكُثُ فِي خَلْوَتِهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، فَإِذَا انْقَضَىٰ زَادُهُ عَادَ إِلَىٰ أَهْلِهِ، ثُمَّ تَزَوَّدَ لِمِثْلِهَا.

فِي شَهْرِ رَمَضَانَ أَرَادَ اللهُ بِالْبَشَرِيَّةِ خَيْرًا؛ فَأَرْسَلَ رَبُّ الْعِزَّةِ وَالْجَلَالِ أَفْضَلَ مَلَائِكَتِهِ جِبْرِيلَ عليه السلام، إِلَىٰ أَفْضَلِ خَلْقِهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ بِأَوَّلِ «سُورَةِ اقْرَأْ»، وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»: عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الإِثْنَيْنِ؟ فَقَالَ: «**ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ**».

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «وُلِدَ نَبِيُّكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ، وَنُبِّئَ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ».

وَ«سُورَةُ: اقْرَأْ» أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَبِهَا نُبِّئَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا فِي الْحَدِيثِ، وَمِمَّا يَلْفِتُ النَّظَرَ فِي الْحَدِيثِ قَوْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**»، جَوَابًا عَلَىٰ قَوْلِ جِبْرِيلَ: اقْرَأْ، وَهُوَ تَعْبِيرٌ وَاضِحٌ عَنْ عَدَمِ مَعْرِفَتِهِ الْقِرَاءَةَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ تَعَلُّمُ ذَلِكَ، فَهُوَ أُمِّيٌّ كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿**ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ**﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ وَهَذَا مِنْ دَلَائِلِ نُبُوَّتِهِ.

وَلَقَدْ كَانَ لِقَاءُ الْمَلَكِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ شَدِيدًا عَلَيْهِ؛ رَغْمَ الْمُمَهِّدَاتِ السَّابِقَةِ مِنْ سَمَاعِ الصَّوْتِ، وَتَسْلِيمِ الْحَجَرِ، وَالرُّؤْيَا الصَّادِقَةِ الْوَاضِحَةِ.

إِنَّهُ أَمْرٌ عَظِيمٌ وَجَلِيلٌ أَنْ يَتَلَقَّىٰ الْقَلْبُ الْبَشَرِيُّ كَلَامَ اللهِ الْخَالِقِ بِوَاسِطَةِ الْمَلَكِ الْعَظِيمِ، رَجَفَ لَهُ فُؤَادُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَارْتَاعَ حَتَّىٰ طَلَبَ مِنْ أَهْلِهِ أَنْ يُزَمِّلُوهُ وَيُدَثِّرُوهُ؛ حَتَّىٰ يَذْهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، وَكَانَتْ طَرِيقَةُ جِبْرِيلَ مَعَهُ فِي أَوَّلِ لِقَاءٍ فِيهَا شِدَّةٌ وَجَهْدٌ؛ لِيُبَيِّنَ لَهُ عَظَمَةَ الْأَمْرِ، وَضَخَامَةَ الْمَسْئُولِيَّةِ، وَالشِّدَّةَ الَّتِي سَيُلَاقِيهَا فِي نَشْرِ الدَّعْوَةِ، فَهِيَ مِنَ الْإِعْدَادِ لَهُ ﷺ، وَالتَّهْيِئَةِ النَّفْسِيَّةِ.

«فَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ مِمَّنْ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٧]، قَالَ: جَمْعَهُ لَكَ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأُهُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]، قَالَ: فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩]، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ، فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا كَانَ قَرَأَ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ».

وَتَقُولُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ؛ فَيَفْصِمُ عَنْهُ، وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

وَقَدْ وَقَفَتْ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مَعَ رَسُولِ اللهِ مَوْقِفًا جَلِيلًا؛ فَكَانَتْ تُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِهِ، وَتُثَبِّتُ فُؤَادَهُ، وَتُثْبِتُ لَهُ بِالدَّلِيلِ بَعْدَ الْآخَرِ أَنَّ الَّذِي جَاءَهُ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِ، وَأَنَّ اللهَ لَا يُخْزِيهِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ وَالْمَعْرُوفِ، فَقَالَتْ: «كَلَّا، وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ»، وَانْطَلَقَتْ بِهِ حَتَّىٰ أَتَتْ بِهِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَهُوَ ابْنُ عَمٍّ لَهَا؛ فَسَأَلَتْ.

فَتْرَةُ الْوَحْيِ وَمُدَّةُ الْفُتُورِ

هَذَا مَا كَانَ فِي بَدْءِ الْوَحْيِ، ثُمَّ فتَرَ الْوَحْيُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتْرَةً؛ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي بَعْضِ طُرُقِ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**ثُمَّ فَتَرَ عَنِّي الْوَحْيُ فَتْرَةً**»، وَلَمْ يَذْكُرِ النَّبِيُّ ﷺ كَمْ كَانَتْ مُدَّةُ فَتْرَةِ الْوَحْيِ، وَاخْتَلَفَتْ أَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ اخْتِلَافًا شَدِيدًا.

إِلَّا أَنَّ الشَّيْخَ صَفِيَّ الرَّحْمَنِ قَالَ فِي كِتَابِهِ «الرَّحِيقُ الْمَخْتُومُ»: «وَقَدْ ظَهَرَ لِي شَيْءٌ غَرِيبٌ بَعْدَ إِدَارَةِ النَّظَرِ فِي الرِّوَايَاتِ، وَفِي أَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَلَمْ أَرَ مَنْ تَعَرَّضَ لَهُ مِنْهُمْ، وَهُوَ أَنَّ هَذِهِ الْأَقْوَالَ وَالرِّوَايَاتِ تُفِيدُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُجَاوِرُ بِحِرَاءٍ شَهْرًا وَاحِدًا، وَهُوَ شَهْرُ رَمَضَانَ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ، وَذَلِكَ مِنْ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَأَنَّ سَنَةَ النُّبُوَّةِ كَانَتْ آخِرَ تِلْكَ السَّنَوَاتِ الثَّلَاثِ، وَأَنَّهُ كَانَ يَتِمُّ جِوَارُهُ بِتَمَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَكَانَ يَنْزِلُ بَعْدَهُ مِنْ حِرَاءٍ صَبَاحًا -أَيْ: لِأَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ- وَيَعُودُ إِلَىٰ الْبَيْتِ، وَقَدْ وَرَدَ التَّنْصِيصُ فِي رِوَايَةٍ «الصَّحِيحَيْنِ» عَلَىٰ أَنَّ الْوَحْيَ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ ﷺ بَعْدَ الْفَتْرَةِ؛ إِنَّمَا نَزَلَ وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَىٰ بَيْتِهِ بَعْدَ إِتْمَامِ جِوَارِهِ بِتَمَامِ الشَّهْرِ.

أَقُولُ: فَهَذَا يُفِيدُ أَنَّ الْوَحْيَ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ بَعْدَ الْفَتْرَةِ إِنَّمَا نَزَلَ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ، بَعْدَ نِهَايَةِ شَهْرِ رَمَضَانَ الَّذِي تَشَرَّفَ فِيهِ بِالنُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ، وَأَنَّهُ كَانَ آخِرَ مُجَاوَرَةٍ لَهُ بِحِرَاءٍ، وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ أَوَّلَ نُزُولٍ كَانَ فِي لَيْلَةِ الإِثْنَيْنِ الْحَادِيَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ فَتْرَةَ الْوَحْيِ كَانَتْ لِعَشْرَةِ أَيَّامٍ فَقَطْ، وَأَنَّ الْوَحْيَ نَزَلَ بَعْدَهَا صَبِيحَةَ يَوْمِ الْخَمِيسِ لِأَوَّلِ شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الْأُولَىٰ مِنَ النُّبُوَّةِ.

وَأَمَّا مَا ذُكِرَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ مُحَاوَلَةِ النَّبِيِّ ﷺ التَّرَدِّيَ مِنْ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ؛ فَقَدْ ذَهَبَ ابْنُ حَجَرٍ إِلَىٰ أَنَّهُ بَلَاغٌ مُرْسَلٌ مِنْ مَرَاسِيلِ الزُّهْرِيِّ، وَمَرَاسِيلُ الزُّهْرِيِّ ضَعِيفَةٌ».

وَرَدَّ الْأَلْبَانِيُّ هَذِهِ الزِّيَادَةَ بِعِلَّتَيْنِ:

الْأُولَىٰ: تَفَرُّدُ مَعْمَرٍ بِهَا دُونَ يُونُسَ وَعَقِيلٍ؛ فَهِيَ شَاذَّةٌ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّهَا مُرْسَلَةٌ مُعْضَلَةٌ، وَلَمْ تَأْتِ مِنْ طَرِيقٍ مَوْصُولَةٍ يُحْتَجُّ بِهَا.

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهَا زِيَادَةٌ مُنْكَرَةٌ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَىٰ؛ إِذْ لَا يَلِيقُ بِالنَّبِيِّ الْمَعْصُومِ أَنْ يُحَاوِلَ قَتْلَ نَفْسِهِ مَهْمَا كَانَ الدَّافِعُ لَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ.

ثُمَّ حَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ عَوْدَةِ الْوَحْيِ إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، فَقَالَ: «**فَبَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجُئِثْتُ مِنْهُ رُعْبًا** -أَيْ: **ذُعِرْتُ**

وَخِفْتُ-، فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَدَثَّرُونِي، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، إِلَىٰ: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]، ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

مَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ لَا يَرَىٰ شَيْئًا، وَفَتَرَ عَنْهُ الْوَحْيُ؛ فَاغْتَمَّ لِذَلِكَ، ثُمَّ تَبَدَّىٰ لَهُ الْمَلَكُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ، وَثَبَّتَهُ وَبَشَّرَهُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقًّا؛ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ -وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ-: «**بَيْنَمَا أَنَا وَاقِفٌ فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَإِذَا الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجَئِثْتُ -أَيْ: فَزِعْتُ وَخِفْتُ وَذُعِرْتُ- مِنْهُ فَرَقًا، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي، دَثِّرُونِي؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾** [المدثر: ١-٤]» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فَيَكُونُ أَوَّلُ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ ابْتِدَاءً: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ بَعْدَ فَتْرَةِ الْوَحْيِ وَعَوْدَةِ جِبْرِيلَ لِلنُّزُولِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾، فَكَانَتِ الْحَالُ الْأُولَىٰ حَالَ نُبُوَّةٍ وَإِيحَاءٍ، وَالثَّانِيَةُ حَالَ إِرْسَالٍ وَبَلَاغٍ، ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ بَعْدَ ذَلِكَ وَتَتَابَعَ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحىٰ: ١-٢].

عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «اشْتَكَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ

لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ: مَا أَرَىٰ شَيْطَانَكَ إلا تَرَكَكَ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحىٰ: ١-٣]».

وَقَامَ حِينَئِذٍ رَسُولُ اللهِ فِي الرِّسَالَةِ أَتَمَّ الْقِيَامِ، وَشَمَّرَ عَنْ سَاقِ الْعَزْمِ وَالْإِقْدَامِ؛ يَدْعُو إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ الْكَبِيرَ وَالصَّغِيرَ، وَالْحُرَّ وَالْعَبْدَ، الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ، الْأَسْوَدَ وَالْأَحْمَرَ، فَاسْتَجَابَ لَهُ عِبَادُ اللهِ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ، وَاسْتَمَرَّ عَلَىٰ مُخَالَفَتِهِ وَعِصْيَانِهِ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ.

فَتَرَ الْوَحْيُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ أَوَّلِ مَرَّةٍ رَأَىٰ جِبْرِيلَ عليه السلام فِيهَا مُدَّةً يَسِيرَةً؛ فَقَدْ رَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» بِسَنَدٍ صَحِيحٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: «حُبِسَ الْوَحْيُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ، وَحُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ؛ فَجَعَلَ يَخْلُو فِي حِرَاءٍ».

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ»: «كَانَ ذَلِكَ -يَعْنِي: فُتُورَ الْوَحْيِ- يُذْهِبُ مَا كَانَ ﷺ وَجَدَهُ مِنَ الرَّوْعِ، وَلِيَحْصُلَ لَهُ التَّشَوُّفُ إِلَىٰ الْعَوْدِ».

وَهُنَا رِوَايَةٌ مُرْسَلَةٌ ضَعِيفَةٌ وَقَعَتْ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنِ الزُّهْرِيِّ؛ وَهِيَ قَوْلُهُ: «حَتَّىٰ حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ -فِيمَا بَلَغَنَا- حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا؛ كَيْ يَتَرَدَّىٰ مِنْ رُؤُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَىٰ -أَيْ: أَشْرَفَ وَطَلَعَ- بِذِرْوَةِ جَبَلٍ؛ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ تَبَدَّىٰ لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ -وَالْجَأْشُ: الْقَلْبُ، يُقَالُ: فُلَانٌ رَابِطُ الْجَأْشِ؛ أَيْ: ثَابِتُ الْقَلْبِ، لَا

يَرْتَاعُ وَلَا يَنْزَعِجُ لِلْعَظَائِمِ وَالشَّدَائِدِ-، وَتَقَرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ؛ فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا أَوْفَىٰ بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّىٰ لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ»؛ هَذَا مَا ذَكَرَهُ الزُّهْرِيُّ مُرْسَلًا.

قَالَ الْحَافِظُ: «هَذِهِ الْقِصَّةُ وَهِيَ مِنْ بَلَاغَاتِ الزُّهْرِيِّ، وَلَيْسَ مَوْصُلًا».

يَقُولُ: «حَتَّىٰ حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ -فِيمَا بَلَغَنَا-»؛ فَهِيَ مِنْ بَلَاغَاتِ الزُّهْرِيِّ، وَلَيْسَتْ بِمَوْصُولَةٍ؛ لِذَلِكَ لَمْ يَرْوِ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ فِي كِتَابِ: بَدْءِ الْوَحْيِ، وَإِنَّمَا رَوَاهَا فِي كِتَابِ: التَّعْبِيرِ؛ لِيُبَيِّنَ ضَعْفَهَا.

يَعْنِي: كَانَ الْأَوْلَىٰ أَنْ تُذْكَرَ لِلْمُنَاسَبَةِ فِي كِتَابِ: بَدْءِ الْوَحْيِ مِنْ «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»، لَكِنَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمْ يَذْكُرْهَا ثَمَّةَ، وَإِنَّمَا رَوَاهَا فِي كِتَابِ: التَّعْبِيرِ -تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا-؛ لِيُبَيِّنَ ضَعْفَهَا.

أَمَّا مُدَّةُ فُتُورِ الْوَحْيِ:

فَرَوَىٰ ابْنُ سَعْدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهَا كَانَتْ أَيَّامًا، وَهَذَا الَّذِي يَتَرَجَّحُ بَلْ يَتَعَيَّنُ، وَأَمَّا مَا اشْتُهِرَ مِنْ أَنَّهَا دَامَتْ سَنَتَيْنِ وَنِصْفًا، أَوْ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ؛ فَلَا يَصِحُّ بِحَالٍ بَعْدَ إِدَارَةِ النَّظَرِ فِي جَمِيعِ الرِّوَايَاتِ.

قَالَ الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ مُحَمَّد أَبُو شَهْبَة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالَّذِي أُرَجِّحُهُ وَأَمِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا كَانَتْ أَيَّامًا، وَأَنَّ أَقْصَاهَا أَرْبَعُونَ يَوْمًا.

أَمَّا أَنْ يَقْضِيَ النَّبِيُّ ثَلَاثَ سِنِينَ أَوْ سَنَتَيْنِ وَنِصْفَ سَنَةٍ مِنْ عُمْرِ الدَّعْوَةِ

الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ غَيْرِ وَحْيٍ وَدَعْوَةٍ؛ فَهَذَا مَا لَا تَقْبَلُهُ الْعُقُولُ، وَلَا يَدُلُّ عَلَيْهِ نَقْلٌ صَحِيحٌ».

لَمَّا عَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعْرِفَةَ الْيَقِينِ أَنَّهُ أَضْحَىٰ نَبِيًّا لِلَّهِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ، وَأَنَّ الَّذِي جَاءَهُ هُوَ الْوَحْيُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَصَارَ تَشَوُّقُهُ وَارْتِقَابُهُ لِمَجِيءِ الْوَحْيِ سَبَبًا فِي ثَبَاتِهِ، وَاحْتِمَالِهِ عِنْدَمَا يَعُودُ؛ جَاءَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَثْنَاءِ فَتْرَةِ الْوَحْيِ يَذْهَبُ إِلَىٰ غَارِ حِرَاءٍ فَيَخْلُو فِيهِ، وَبَيْنَا هُوَ نَازِلٌ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ سَمِعَ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا جِبْرِيلُ عليه السلام فِي صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا سَادًّا مَا بَيْنَ الْأُفُقِ، فَرُعِبَ مِنْهُ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ خَدِيجَةَ رضي الله عنها فَقَالَ: «**زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي**»، فَزَمَّلُوهُ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ١-٥]؛ رَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» ذَلِكَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه.

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ فِي «الصَّحِيحِ»، قَالَ: «**فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا**».

كَأَنَّ الْحِكْمَةَ فِي الصَّبِّ بَعْدَ التَّدَثُّرِ هِيَ: طَلَبُ حُصُولِ السُّكُونِ؛ لِمَا وَقَعَ فِي الْبَاطِنِ مِنَ الِانْزِعَاجِ، أَوْ أَنَّ الْعَادَةَ أَنَّ الرِّعْدَةَ تَعْقُبُهَا الْحُمَّىٰ، وَقَدْ عُرِفَ مِنَ الطِّبِّ النَّبَوِيِّ مُعَالَجَةُ الْحُمَّىٰ بِالْمَاءِ الْبَارِدِ.

قَالَ: «**فَدَثَّرُونِي، وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، فنزَلَتْ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ

﴿٢﴾ ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾».

كَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ آيَاتٍ نَزَلَتْ بَعْدَ فَتْرَةِ الْوَحْيِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَوَامِرُ الْمُتَتَابِعَةُ الْقَاطِعَةُ إِيذَانًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ بِأَنَّ الْمَاضِيَ قَدِ انْتَهَىٰ بِمَنَامِهِ وَهُدُوئِهِ وَسَلَامِهِ، وَأَنَّهُ أَمَامَ عَمَلٍ جَدِيدٍ يَسْتَدْعِي الْيَقَظَةَ، وَالتَّشْمِيرَ، وَالْإِنْذَارَ، وَالْإِعْذَارَ، فَلْيَحْمِلِ الرِّسَالَةَ، وَيُنْذِرِ النَّاسَ، وَلْيَأْنَسْ بِالْوَحْيِ، وَلْيَصْبِرْ عَلَىٰ عَنَائِهِ؛ فَإِنَّهُ مَصْدَرُ رِسَالَتِهِ وَمَدَدُ دَعْوَتِهِ.

ثُمَّ نَزَلَتْ بَعْدَ «سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ» مُبَاشَرَةً «سُورَةُ الْمُزَّمِّلِ»، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١-٤].

كَانَ قِيَامُ اللَّيْلِ فُرِضَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَلَىٰ أَصْحَابِهِ الْكِرَامِ رضي الله عنهم، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا كَامِلًا حَتَّىٰ وَرِمَتْ أَقْدَامُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ...﴾ إِلَىٰ آخر الآية [المزمل: ٢٠]؛ فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرْضِيَّتِهِ.

رَوَىٰ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ سَعِيدِ بنِ هِشَامٍ قَالَ: «قُلْتُ لِعَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رسُول اللهِ ﷺ. قالَتْ: أَلسْتَ تَقْرأُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾؟ قُلْتُ: بَلَىٰ. قالَتْ: فإنَّ اللهَ عز وجل افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ في أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا -أَيْ: عَامًا كَامِلًا-، وَأَمْسَكَ اللهُ

خَاتِمَتَهَا اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا فِي السَّمَاءِ، حتَّىٰ أَنْزَلَ اللهُ في آخِرِ هذِهِ السُّورَةِ، التَّخْفِيفَ؛ فَصارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ».

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا هَذَا: «ظَاهِرُهُ أَنَّهُ صَارَ تَطَوُّعًا فِي حَقِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَالْأُمَّةِ؛ فَأَمَّا الْأُمَّةُ: فَهُوَ تَطَوُّعٌ فِي حَقِّهِمْ بِالْإِجْمَاعِ، وَأَمَّا النَّبِيُّ ﷺ: فَاخْتَلَفُوا فِي نَسْخِهِ فِي حَقِّهِ، وَالْأَصَحُّ عِنْدَنَا نَسْخُهُ». كَلَامُ النَّوَوِيِّ رَحِمَهُ اللهُ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ رَحِمَهُ اللهُ: «ثُمَّ فَتَرَ الْوَحْيُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتْرَةً مِنْ ذَلِكَ، حَتَّىٰ شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ فَأَحْزَنَهُ، فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ بِسُورَةِ الضُّحَىٰ، يُقْسِمُ لَهُ رَبُّهُ، وَهُوَ الَّذِي أَكْرَمَهُ بِمَا أَكْرَمَهُ بِهِ، مَا وَدَّعَهُ، وَمَا قَلَاهُ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحىٰ: ١-٥]»؛ هَذَا مَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي «السِّيرَةِ».

وَلَكِنْ رِوَايَةُ الشَّيْخَيْنِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» أَصَحُّ.

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» عَنْ جُنْدُبِ بنِ سُفْيَانَ الْبَجَلِيِّ قَالَ: «اشْتَكَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ».

قِيلَ هِيَ أُمُّ جَمِيلٍ الْعَوْرَاءُ بِنْتُ حَرْبٍ، وَهِيَ أُخْتُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، وَامْرَأَةُ أَبِي لَهَبٍ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ تَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَكَانَتْ تُعَيِّرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالْفَقْرِ، ثُمَّ كَانَتْ مَعَ كَثْرَةِ مَالِهَا تَحْمِلُ الْحَطَبَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا؛ لِشِدَّةِ بُخْلِهَا، وَكَانَتْ تَطْرَحُ الشَّوْكَ بِاللَّيْلِ عَلَىٰ طَرِيقِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ بَشَّرَهَا اللهُ

تَعَالَىٰ بِالنَّارِ؛ فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي «سُورَةِ الْمَسَدِ»: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥]؛ أَيْ: فِي عُنُقِهَا حَبْلٌ مِنْ نَارٍ.

«فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: يَا مُحَمَّدُ! إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرُبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحىٰ: ١-٣]».

عَلَىٰ هَذَا تَكُونُ «سُورَةُ الضُّحَىٰ» نَزَلَتْ فِي فَتْرَةٍ أُخْرَىٰ غَيْرِ هَذِهِ الْفَتْرَةِ الَّتِي كَانَتْ بَعْدَ ابْتِدَاءِ الْوَحْيِ؛ فَإِنَّ تِلْكَ دَامَتْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ ذَلِكَ فِي فَتْرَةِ الْوَحْيِ، وَأَمَّا هَذِهِ فَلَمْ تَكُنْ أَكْثَرَ مِنْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ -كَمَا فِي الْحَدِيثِ-، فَاخْتَلَطَتَا، وَاشْتَبَهَتَا عَلَىٰ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ.

فَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي سَبَبِ نُزُولِ «سُورَةِ الضُّحَىٰ».

وَرَوَىٰ الطَّحَاوِيُّ فِي «شَرْحِ مُشْكِلِ الآثَارِ» بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ مَسْأَلَةً وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ سَأَلْتُهُ، قُلْتُ: أَيْ رَبِّ! قَدْ كَانَتْ قَبْلِي الأَنْبِيَاءُ، مِنْهُمْ مَنْ سَخَّرْتَ لَهُ الرِّيحَ، ثُمَّ ذَكَرَ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ ﷺ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ، ثُمَّ ذَكَرَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ ﷺ، وَمِنْهُمْ، وَمِنْهُمْ، يَذْكُرُ مَا أُعْطُوا.**

قَالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَيْتُ؟ قُلْتُ: بَلَىٰ، أَيْ رَبِّ.

قَالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالًّا فَهَدَيْتُ؟ قُلْتُ: بَلَىٰ، أَيْ رَبِّ.

قَالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ عَائِلًا فأَغْنَيْتُ؟ -العَائِلُ: الفَقِيرُ- قُلْتُ: بَلَىٰ، أَيْ رَبِّ.

قَالَ: أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْتُ عَنْكَ وِزْرَكَ؟ قُلْتُ: بَلَىٰ، أَيْ رَبِّ».

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com

مَرَاتِبُ الْوَحْيِ

لِلْوَحْيِ مَرَاتِبُ شَتَّىٰ بَعْضُهَا أَيْسَرُ مِنْ بَعْضٍ:

إِحْدَاهَا: الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ، وَكَانَتْ مَبْدَأَ وَحْيِهِ ﷺ، وَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ؛ كَمَا مَرَّ.

ثَانِيهَا -يَعْنِي الْمَرْتَبَةَ الثَّانِيَةَ مِنْ مَرَاتِبِ الْوَحْيِ-: مَا كَانَ يُلْقِيهِ الْمَلَكُ فِي رُوعِهِ وَقَلْبِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَاهُ، فَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي: أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّىٰ تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَىٰ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ؛ فَإِنَّ مَا عِنْدَ اللهِ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ**». أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ، وَهُوَ صَحِيحٌ بِشَوَاهِدِهِ.

الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ مَرَاتِبِ الْوَحْيِ: أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلَكُ رَجُلًا، فَيُخَاطِبُهُ حَتَّىٰ يَعِيَ عَنْهُ مَا يَقُولُ لَهُ، وَفِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ كَانَ يَرَاهُ الصَّحَابَةُ أَحْيَانًا؛ كَمَا فِي حَدِيثِ عُمَرَ رضي الله عنه، قَالَ: «**يَا عُمَرُ! أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟**» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ؛ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**».

رَابِعُ مَرَاتِبِ الْوَحْيِ: أَنَّهُ كَانَ يَأْتِيهِ فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَكَانَ أَشَدَّهُ

عَلَيْهِ، فَيَتَلَبَّسُ بِهِ الْمَلَكُ حَتَّىٰ إِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ -أَيْ: يَسِيلُ- عَرَقًا فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، وَحَتَّىٰ إِنَّ نَاقَتَهُ لَتَبْرُكُ بِهِ إِلَىٰ الْأَرْضِ إِذَا كَانَ رَاكِبَهَا، وَلَقَدْ جَاءَهُ ﷺ الْوَحْيُ كَذَلِكَ، وَفَخِذُهُ عَلَىٰ فَخِذِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه فَثَقُلَتْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ كَادَتْ تَرُضُّهَا -أَيْ: تَدُقُّهَا-.

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا»: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ الحَارِثَ بنَ هِشَامٍ رضي الله عنه، سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فقَالَ: يا رَسُولَ اللهِ: كَيْفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟ فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فيُفْصَمُ عَنِّي، وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وأَحْيَانًا يتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي ما يَقُولُ**».

وعَنْهَا رضي الله عنها قَالَتْ: «ولَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ في اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ، وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وفي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ عنْهَا -أَيْضًا- أَنَّهَا قَالَتْ: «فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ - البُرَحَاءُ: شِدَّةُ الكَرْبِ مِنْ ثِقَلِ الوَحْيِ- عِنْدَ الْوَحْيِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الجُمَانِ -الجُمانُ: اللُّؤْلُؤُ، فَشُبِّهَتْ قَطَرَاتُ عَرَقِهِ ﷺ بِالجُمَانِ لِمُشَابَهَتِهَا فِي الصِّفَاتِ وَالحُسْنِ- مِنَ العَرَقِ، فِي اليَوْمِ الشَّاتِي مِنْ ثِقَلِ القَوْلِ الذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ».

خَامِسُ مَرَاتِبِ الْوَحْيِ: أَنَّهُ يَرَىٰ الْمَلَكَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، فَيُوحِي إِلَيْهِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُوحِيَهُ، وَهَذَا وَقَعَ لَهُ ﷺ مَرَّتَيْنِ؛ كَمَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ ذَلِكَ فِي

«سُورَةِ النَّجْمِ».

سَادِسُهَا: مَا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيْهِ، وَهُوَ فَوْقَ السَّمَوَاتِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ؛ مِنْ فَرْضِ الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا.

سَابِعُ مَرَاتِبِ الْوَحْيِ: كَلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ لَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ بِلَا وَاسِطَةِ مَلَكٍ، كَمَا كَلَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ مُوسَىٰ بْنَ عِمْرَانَ عليه السلام، وَهَذِهِ الْمَرْتَبَةُ ثَابِتَةٌ لِمُوسَىٰ عليه السلام قَطْعًا بِنَصِّ الْقُرْآنِ، وَثُبُوتُهَا لِنَبِيِّنَا ﷺ، هُوَ فِي حَدِيثِ الْمِعْرَاجِ.

وَقَدْ زَادَ بَعْضُهُمْ مَرْتَبَةً ثَامِنَةً، وَهِيَ: تَكْلِيمُ اللهِ تَعَالَىٰ لَهُ كِفَاحًا مِنْ غَيْرِ حِجَابٍ، وَهَذَا عَلَىٰ مَذْهَبِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ ﷺ رَأَىٰ رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ خِلَافٍ بَيْنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ.

قَالَ الْإِمَامُ الْبَغَوِيُّ رحمه الله: «الْوَحْيُ مِنَ اللهِ عز وجل عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِ عليهم السلام عَلَىٰ أَنْوَاعٍ كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ ۞ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ** ﴾ [الشورىٰ: ٥١]، قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ:

الْوَحْيُ الْأَوَّلُ: مَا أَرَاهُمْ فِي الْمَنَامِ، قَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ: رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ، وَقَرَأَ: ﴿**إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ**﴾ [الصافات: ١٠٢].

وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ**﴾؛ كَمَا كَلَّمَ مُوسَىٰ عليه السلام مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ حَتَّىٰ قَالَ: ﴿**أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا**﴾؛ فَهُوَ إِرْسَالُ الرُّوحِ الْأَمِينِ؛ كَمَا قَالَ

تَعَالَىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

وَقَدْ كَانَ لِنَبِيِّنَا ﷺ جَمِيعُ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ، فَقَالَ اللهُ ﷻ فِي رُؤْيَاهُ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٨].

كَانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يَخَافُ مِنْ نِسْيَانِ الوَحْيِ، فَقَدْ أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَالِجُ -الْمُعَالَجَةُ: هِيَ الْمُحَاوَلَةُ لِلشَّيْءِ بِمَشَقَّةٍ- مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ؛ فأنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٧]، قَالَ: جَمَعَهُ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأُهُ، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]، قَالَ: فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩]، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام اسْتَمَعَ، فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا أَقْرَأَهُ».

مُنْذُ أَنْ تَلَقَّىٰ النَّبِيُّ ﷺ أَمْرَ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١- ٧]، قَامَ مِنْ فَوْرِهِ يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الْأَخْذَ بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ.

www.menhag-un.com

الْفَتْرَةُ الْمَكِّيَّةُ وَالْفَتْرَةُ الْمَدَنِيَّةُ، وَمَرَاحِلُ كُلٍّ مِنْهُمَا

وَقَدْ مَرَّتِ الدَّعْوَةُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ مُنْذُ بَعْثَتِهِ إِلَىٰ وَفَاتِهِ بِفَتْرَتَيْنِ، تَمْتَازُ إِحْدَاهُمَا عَنِ الْأُخْرَىٰ تَمَامَ الِامْتِيَازِ، وَهُمَا:

١- الْفَتْرَةُ الْمَكِّيَّةُ، اسْتَمَلَتْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً عَلَىٰ التَّقْرِيبِ.

٢- وَالْفَتْرَةُ الْمَدَنِيَّةُ، اسْتَمَرَّتْ عَشْرَ سَنَوَاتٍ كَامِلَةٍ.

وَتَشْتَمِلُ كُلٌّ مِنَ الْفَتْرَتَيْنِ عَلَىٰ مَرَاحِلَ، لِكُلٍّ مِنْهَا خَصَائِصُ تَمْتَازُ بِهَا عَنْ غَيْرِهَا، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ جَلِيًّا بَعْدَ النَّظَرِ فِي الظُّرُوفِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا الدَّعْوَةُ خِلَالَ الدَّوْرَيْنِ.

فَيُمْكِنُ تَقْسِيمُ الْفَتْرَةِ الْمَكِّيَّةِ إِلَىٰ مَرْحَلَتَيْنِ:

الْمَرْحَلَةُ الْأُولَىٰ: الدَّعْوَةُ السِّرِّيَّةُ، وَاسْتَمَرَّتْ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ.

الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ: الدَّعْوَةُ جَهْرًا، وَبِاللِّسَانِ فَقَطْ، دُونَ قِتَالٍ، مِنْ بِدَايَةِ السَّنَةِ الرَّابِعَةِ لِلْبَعْثَةِ، حَتَّىٰ الْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

أَمَّا الْفَتْرَةُ الْمَدَنِيَّةُ: فَيُمْكِنُ تَقْسِيمُهَا إِلَىٰ ثَلَاثِ مَرَاحِلَ:

- **الْمَرْحَلَةُ الْأُولَىٰ**: مَرْحَلَةٌ أُثِيرَتْ فِيهَا الْقَلَاقِلُ وَالْفِتَنُ، وَأُقِيمَتْ فِيهَا

الْعَرَاقِيلُ مِنَ الدَّاخِلِ، وَزَحَفَ فِيهَا الْأَعْدَاءُ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ؛ لِاسْتِئْصَالِ خَضْرَائِهَا مِنَ الْخَارِجِ، وَاسْتَمَرَّتْ هَذِهِ الْمَرْحَلَةُ إِلَىٰ عَامِ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ سَنَةَ سِتٍّ مِنَ الْهِجْرَةِ.

- **الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ مَرَاحِلِ الْفَتْرَةِ الْمَدَنِيَّةِ**: مَرْحَلَةُ الْهُدْنَةِ مَعَ الزَّعَامَةِ الْوَثَنِيَّةِ، وَاسْتَمَرَّتْ حَتَّىٰ فَتْحِ مَكَّةَ، فِي رَمَضَانَ سَنَةَ ثَمَانٍ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَهِيَ مَرْحَلَةُ دَعْوَةِ الْمُلُوكِ، وَالْأُمَرَاءِ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ.

- **الْمَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ مَرَاحِلِ الْفَتْرَةِ الْمَدَنِيَّةِ**: مَرْحَلَةُ دُخُولِ النَّاسِ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، وَهِيَ مَرْحَلَةُ تَوَافُدِ الْقَبَائِلِ وَالْأَقْوَامِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، وَاسْتَمَرَّتْ إِلَىٰ انْتِهَاءِ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي رَبِيعٍ الْأَوَّلِ سَنَةَ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ مِنَ الْهِجْرَةِ.

مَا يَتَعَلَّقُ بِفَتْرَةِ الْوَحْيِ، وَمَا ذَكَرَ الزُّهْرِيُّ فِي بَلَاغِهِ؛ كَانَ مَجَالًا رَحْبًا لِطَعْنِ الطَّاعِنِينَ مِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ، وَغَيْرِهِمُ الَّذِينَ تَبِعُوهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ تَمْحِيصٍ وَلَا تَدْقِيقٍ، وَهُمْ يَنْتَمُونَ إِلَيْنَا، وَمِنْ بَنِي جِلْدَتِنَا، وَيُصَلُّونَ إِلَىٰ قِبْلَتِنَا!! وَلَكِنْ لَمْ يَتَّبِعُوا الْهُدَىٰ وَالْحَقَّ كَمَا قَرَّرَهُ وَوَضَّحَهُ السَّابِقُونَ مِنْ عُلَمَائِنَا -عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ-؛ فَهُمْ يَتَقَمَّمُونَ كَمَا يَفْعَلُ الْمُسْتَشْرِقُونَ.

فِي بَعْضِ رِوَايَاتِ «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»: «ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً؛ حَتَّىٰ حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ -قَالَ الزُّهْرِيُّ:- فِيمَا بَلَغَنَا حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا؛ كَيْ يَتَرَدَّىٰ مِنْ رُؤُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَىٰ بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ؛ تَبَدَّىٰ لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ

جَأْشُهُ، وَتَقَرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ؛ فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا أَوْفَىٰ بِذِرْوَةِ جَبَلٍ؛ تَبَدَّىٰ لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ».

هَذِهِ الرِّوَايَةُ لَيْسَتْ عَلَىٰ شَرْطِ الصَّحِيحِ؛ لِأَنَّهَا مِنَ الْبَلَاغَاتِ، وَهِيَ مِنْ قَبِيلِ الْمُنْقَطِعِ، وَالْمُنْقَطِعُ مِنْ أَنْوَاعِ الضَّعِيفِ، وَالْبُخَارِيُّ لَا يُخْرِجُ إِلَّا الْأَحَادِيثَ الْمُسْنَدَةَ الْمُتَّصِلَةَ بِرِوَايَاتِ الْعُدُولِ الضَّابِطِينَ، وَلَعَلَّ الْبُخَارِيَّ ذَكَرَهَا؛ لِيُنَبِّهَنَا إِلَىٰ مُخَالَفَتِهَا لِمَا صَحَّ عِنْدَهُ مِنْ حَدِيثِ بَدْءِ الْوَحْيِ، الَّذِي لَمْ تُذْكَرْ فِيهِ هَذِهِ الزِّيَادَةُ؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَهَا فِي كِتَابِ: «التَّعْبِيرِ» لَا فِي كِتَابِ: «بَدْءِ الْوَحْيِ».

وَلَوْ أَنَّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ كَانَتْ صَحِيحَةً لَأَوَّلْنَاهَا تَأْوِيلًا مَقْبُولًا، أَمَّا وَهِيَ عَلَىٰ هَذِهِ الْحَالَةِ، فَلَا نُكَلِّفُ أَنْفُسَنَا عَنَاءَ الْبَحْثِ عَنْ مَخْرَجٍ لَهَا.

وَأَيْضًا: فَإِنَّ مَا اسْتَفَاضَ مِنْ سِيرَتِهِ ﷺ يَرُدُّ ذَلِكَ، فَقَدْ حَدَثَتْ لَهُ حَالَاتٌ فِي أَثْنَاءِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ رَبِّهِ أَشَدُّ وَأَقْسَىٰ مِنْ هَذِهِ الْحَالَةِ، فَمَا فَكَّرَ فِي الِانْتِحَارِ بِأَنْ يُلْقِيَ نَفْسَهُ مِنْ شَاهِقِ جَبَلٍ، أَوْ يَبْخَعَ نَفْسَهُ، وَسَتَرَىٰ فِيمَا يَأْتِي أَنَّهُ لَمَّا عَرَضَ عَلَيْهِ عَمُّهُ أَنْ يَكُفَّ عَنْ قُرَيْشٍ، وَيُبْقِيَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ نَفْسِهِ، وَكَانَ عَمُّهُ نَاصِرَهُ الْوَحِيدَ مِنْ أَهْلِهِ لَمْ يَقْبَلِ النَّبِيُّ ﷺ فِي ذَلِكَ تَنَازُلًا.

وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُنْكَرَ أَنَّهُ ﷺ حَصَلَتْ لَهُ حَالَةُ أَسَىٰ وَحُزْنٍ عَمِيقَيْنِ عَلَىٰ انْقِطَاعِ الْوَحْيِ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَدَمَ رِضًا مِنَ اللهِ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يُهَوِّنُ عَلَيْهِ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ لَأْوَاءِ الْحَيَاةِ وَشَدَائِدِهَا، مَا دَامَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَفِيهِ

رِضَا اللهِ، وَهُوَ الْقَائِلُ فِي سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْكَرْبِ وَالضِّيقِ وَالشِّدَّةِ -لَمَّا نَالَهُ مَا نَالَهُ مِنْ سُفَهَاءِ ثَقِيفٍ-، قَالَ مُخَاطِبًا رَبَّهُ: «**إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي!!**». وَالْحَدِيثُ ضَعَّفَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ.

كَانَ يُمْكِنُنَا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ ظَنَّ حُدُوثِ غَضَبِ اللهِ وَسَخَطِهِ تُجَوِّزُ لِلْمُخْلِصِينَ مِنْ عِبَادِ اللهِ أَنْ يُهْلِكُوا أَنْفُسَهُمْ وَيُذْهِبُوهَا تَرْضِيَةً لِلَّهِ، وَخَوْفًا مِنْهُ، لَكِنْ لَا نَرَىٰ هَذَا؛ لِأَنَّ حَالَةَ الرِّوَايَةِ كَمَا سَمِعْتَ، وَلِأَنَّهَا تُخَالِفُ الْمَعْرُوفَ الْمَشْهُورَ مِنْ سِيرَتِهِ.

وَالتَّعْلِيلُ الصَّحِيحُ لِكَثْرَةِ غِشْيَانِهِ ﷺ فِي مُدَّةِ الْفَتْرَةِ رُؤُوسَ الْجِبَالِ وَشَوَاهِقَهَا:

أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا حَصَلَ لَهُ خَيْرٌ أَوْ نِعْمَةٌ فِي مَكَانٍ مَا، فَإِنَّهُ يُحِبُّ هَذَا الْمَكَانَ، وَيَتَلَمَّسُ فِيهِ مَا افْتَقَدَهُ، فَلَمَّا انْقَطَعَ الْوَحْيُ صَارَ ﷺ يُكْثِرُ مِنَ ارْتِيَادِ قِمَمِ الْجِبَالِ لَا سِيَّمَا حِرَاءٌ؛ رَجَاءَ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَجِدْ جِبْرِيلَ فِي حِرَاءٍ، فَلْيَجِدْهُ فِي غَيْرِهِ، فَرَآهُ رَاوِي هَذِهِ الزِّيَادَةِ، وَهُوَ يَرْتَادُ الْجِبَالَ، فَظَنَّ أَنَّهُ يُرِيدُ هَذَا، وَقَدْ أَخْطَأَ الرَّاوِي الْمَجْهُولُ فِي ظَنِّهِ قَطْعًا.

وَلَا أَدَلَّ عَلَىٰ ضَعْفِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ وَتَهَافُتِهَا مِنْ أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يَقُولُ لِلنَّبِيِّ كُلَّمَا أَوْفَىٰ بِذِرْوَةِ جَبَلٍ: «يَا مُحَمَّدُ! إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا»، وَأَنَّهُ كَرَّرَ ذَلِكَ مِرَارًا، وَلَوْ صَحَّ هَذَا لَكَانَتْ مَرَّةً وَاحِدَةً تَكْفِي فِي تَثْبِيتِ النَّبِيِّ وَصَرْفِهِ

عَمَّا حَدَّثَتْهُ بِهِ نَفْسُهُ -كَمَا زَعَمُوا-.

وَقَعَ كَلَامٌ كَثِيرٌ يَتَعَلَّقُ بِالْوَحْيِ، وَأَمَّا الْكَافِرُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَتَصَوَّرُونَ أَنْ يَكُونَ هُنَالِكَ وَحْيٌ أَصْلًا، فَالْعَجَبُ مِنْ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَتَوَقَّفُ فِي ذَلِكَ، وَيُحَاوِلُ جَاهِدًا أَنْ يُرْجِعَهُ إِلَىٰ حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَىٰ طَرِيقَةِ الْفَلَاسِفَةِ!!

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com